

تداعيات الغزو الإيبيري للمغرب ما بين القرنين 15-16م

Les répercussions de l'invasion ibérique du Maroc entre les XVe et XVIe siècles

زين العابدين زريوح

أستاذ باحث/ دكتوراه في التاريخ الحديث

المؤسسة: جامعة ابن طفيل-المغرب

البريد الإلكتروني: zinelabidine83@hotmail.

ملخص:

يتمحور البحث حول الكشف عن دوافع الغزو الإيبيري (البرتغالي-الإسباني) للسواحل المغربية مع بداية العصر الحديث وبزوغ التوفيق الأوربي ما بين القرنين 15 و16م، ومدى الأضرار التي نتجت عنه وما تسبب فيه من حروب ونزاعات داخلية، وكذا مخلفاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخطيرة التي تركت بصمتها الواضحة في كل مناحي الحياة وعلى ذاكرة الطرفين التي لا زالت تحمل الكثير من رواسب أحداث هذه الفترة.

الكلمات المفاتيح: المغرب-الغزو الإيبيري-إسبانيا – البرتغال – الدولة السعدية-الدولة الوطاسية.

Résumé :

La recherche s'articule autour de la révélation des motifs de l'invasion ibérique (luso-espagnole) sur les côtes marocaines au début de l'époque moderne et l'émergence de la conciliation européenne entre le 15 et le 16 siècles, ainsi que l'étendue des dommages causés par cette invasion, résultant des guerres et des conflits internes, et des graves conséquences sociales, économiques et politiques, qui ont laissé une marque claire dans tous les domaines de la vie et sur la mémoire des deux parties, qui porte encore une grande partie des sédiments des événements de cette période.

Mots clés : Maroc - Invasion ibérique - Espagne - Portugal - État Saadien – État Wattasside

مقدمة:

وقفت خلف الغزو البرتغالي الإسباني للسواحل المغربية مع بداية العصر الحديث وبزوغ التوفيق الأوربي عدة دوافع، هذا الغزو الذي أسهم في مجموعة من الأضرار وفي مقدمتها الكثير من المواجهات العسكرية والحروب والنزاعات الداخلية، إلى جانب المخلفات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخطيرة التي تركت بصمتها الواضحة على كل مناحي الحياة المغربية.

إذ أدى هذا الاحتلال الذي شمل العديد من المناطق الساحلية بالمغرب إلى خلق أزمة خانقة على جميع الأصعدة مع تدهور أوضاع البلاد، وذلك بفعل السيطرة على المنافذ البحرية الرئيسية وفرض حصار تجاري كبير على المبادلات المغربية مع الخارج، والاستحواذ على تجارته مع أوروبا وغرب إفريقيا، والهيمنة كذلك على أجود وأخصب الأراضي السهلية. كما قام البرتغاليون بشكل أساسي -إلى جانب أتباعهم المتعاونين من القبائل الأعرابية- باستغلال ثروات المناطق المحتلة وبعمليات استعباد وقتل الأهالي ونهب ممتلكاتهم. بالموازاة مع انتشار الأوبئة والمجاعات والتمزق السياسي وانعدام الأمن وضعف الدولة المركزية. مما أسهم في كساد فلاحي وفراغ ديمغرافي مهول وصل إلى غاية تضاعف تعداد سكان البلاد. إلى جانب إرسال العديد من المغاربة إلى البرتغال وإسبانيا للعمل كعبيد في مختلف الأشغال المنزلية والأنشطة الاقتصادية المتنوعة.

أولاً: واقع الغزو الإيبيري للمغرب وانعكاساته السوسيواقتصادية:**أ- واقع الغزو الإيبيري للمغرب عقب التراجع الإسلامي في الأندلس وانطلاق الكشوفات الأوربية:**

عاش المغرب خلال القرنين 15 و16م حروباً متعددة ناجمة بالأساس عن الغزو الإيبيري (البرتغالي والإسباني)، هذا الغزو الذي كانت انطلاقته الواضحة مع احتلال سبتة سنة 1415م، التي كانت مركزاً حيوياً لتموين السفن على مقربة من مضيق جبل طارق¹، وذلك بدافع ديني واقتصادي -مع بدايات الكشوفات الجغرافية- على يد الأمير هنري الملاح وبغطاء ودعم من الكنيسة البابوية، ثم تطور هذا الغزو إلى تنافس محموم ما بين الدولتين الإيبيريتين حول التوسع على حساب الثغور المغربية، إلى أن تدخل البابا سنة 1454م لحسمه بطلب من البرتغال الذي تم منحه براءة من الكنيسة تعطيه الحق في سبتة والمناطق المجاورة لها والممتلكات الأخرى التي تم احتلالها قبل ذلك، إلى جانب الشاطئ الإفريقي الممتد من رأس بوجدور جنوب المغرب إلى غاية غينيا وما بعدها². فبعد احتلال مدينة سبتة توالى سقوط المدن الساحلية في يد هذين الغازيين الأوربيين، حيث تمكنت البرتغال من استيطان عدد من الثغور البحرية المغربية المهمة مثل: القصر الصغير سنة 1458م وطنجة وأصيلا سنة 1471م وآسفي سنة 1481م وأزمور سنة 1486م وغيرها³. بينما استحوذ الإسبان -بسبب إلهائهم

¹- التازي، عبد الهادي. التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المحمدية: مطابع فضالة، 7: ص 159-160.

²- كريم، عبد الكريم. (1977). المغرب في عهد الدولة السعيدية، الدار البيضاء: شركة الطبع والنشر، ص 5-7.

³- نفسه، ص 8-9.

للبرتغاليين عن طريق دعم الهجمات الوطاسية على سبتة- باحتلال منطقة عند وادي نون جنوب البلاد أسموها "سانتاكروز santa cruz"، والذين استطاعوا أيضا مباغته البرتغاليين والسيطرة على مدينة مليلية سنة 1497م لا سيما بعد تخلصهم من آخر إمارة إسلامية جنوب إسبانيا وهي غرناطة، وعززوا وجودهم قرب مستعمرتهم بالساحل الصحراوي المغربي، في وقت عمل فيه البرتغاليون على احتلال ساحل ماسة سنة 1497م ومناطق أخرى ومدن مهمة على الساحل الأطلسي الشمالي مثل موكادور Mogador (الصويرة) سنة 1506م، وتأكيد السيطرة على آسفى سنة 1508م، في ظل صراع خفي بين الجانبين لم توقفه معاهدة تورديسيلاس Tordesillas سنة 1494م، والتي تم بموجبها تقاسم النفوذ في العالم بين الطرفين برعاية من بابا روما الذي تدخل مرات متكررة لإيقاف هذا النزاع بين الطرفين حول المستعمرات في المنطقة دون جدوى، إلى غاية احتلال الإسبان لحجرة بادس سنة 1508م والذي سمح بإنهاء الصراع حول الثغور والموانئ المغربية وتوقيع معاهدة سنتر Sintra سنة 1509م التي نصت على تقاسم هذه السواحل، على أساس إطلاق يد الإسبان في المنطقة المتوسطية الممتدة ما بين بادس ومليلية، في مقابل الاعتراف بالنفوذ البرتغالي على المنطقة الممتدة من مليلية شمالا إلى رأس بجدور جنوبا، باستثناء حصن "سانتاكروز santa cruz" الذي بقي تحت السيطرة الإسبانية⁴. وذلك استغلالا من الدولتين للوضع السياسي المتهرب الذي أضحى عليه المغرب في عهد المرينيين ثم الوطاسيين الذين لم يستطيعوا صد هذه الهجمة وإيقاف تساقط المنافذ البحرية في يديهما بشكل متوالي.

ب- الانعكاسات السوسيواقتصادية للغزو الإيبيري على المغرب:

شهد المغرب -نتيجة الغزو الإيبيري ومخلفاته- الكثير من الحروب، لاسيما خلال النصف الأول من القرن 16م، والتي بلغ عددها على امتداد هذا القرن بكامله ما مجموعه 160 معركة بين مختلف الأطراف المتصارعة (البرتغاليون-الإسبان-الوطاسيون-السعديون-الأهالي المغاربة)، مع أن معظم هذه المعارك كانت في المقام الأول ما بين أطراف مغربية من جهة والغزاة البرتغاليين من جهة أخرى⁵، بالإضافة إلى عبء الكوارث الطبيعية التي جثمت على البلاد لمدة تفوق 43 سنة ما بين موجات جفاف وطاقون ومجاعات وزحف للجراد، والتي لم يخل بعضها من وجود رابط بهذا الغزو⁶. أسهم كل هذا، وخصوصا الاحتلال البرتغالي الذي كان مترصا بأهم الموانئ المغربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وكذا مجمل موانئ المحيط الأطلسي ومناطق أزموور والحوض الأسفل لأمر

⁴- نفسه، ص 10-12.

⁵- المنصوري، عثمان. (1989). "تأثير الحروب والكوارث على النشاط التجاري بمغرب القرن السادس عشر"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالدولة والمجتمع عبر تاريخ المغرب، عمر آفا(محرر)، الدار البيضاء: كلية الآداب والعلوم الإنسانية-عين الشق، 2: ص 167.

⁶- نفسه، ص 169.

الربيع، إلى جانب ساحل سوس الذي فُرضت على أهاليه عدة إتاوات واستنزفت مواردهم⁷، إلى إحداث أضرار بالغة بالاقتصاد المغربي وترك آثار سلبية على الوضع المعاشي للسكان المغربية المستقرة في السهول المجاورة للسواحل المحتلة بصورة أكبر، ثم أهالي المناطق الداخلية الذين لم يسلموا هم كذلك من ارتدادات هذه الأزمة، وذلك على امتداد القرن 15م إلى حدود منتصف القرن 16م، بحيث شُلت قدرات المنتجين وطرق التجارة نتيجة الفوضى⁸، وأضحى المغرب يعاني بشكل متفاقم من الانغلاق والعزلة التجارية على المستوى الخارجي، مما جعله في شبه انقطاع عن المحاور التجارية الدولية في غرب المتوسط⁹.

كما خلف هذا الغزو دمارا واسعا أثر في القطاعات الحيوية وعلى رأسها القطاع الفلاحي الذي دمّرت بنيته التحتية وأضحى عاجزا عن الإنتاج بشكل كبير، لاسيما الدمار الذي لحق بالآبار¹⁰. فقد تعمقت أزمة القطاع الفلاحي المغربي خلال هذه الفترة بفعل عمل البرتغاليين على نهب موارد البلاد عن طريق فرض ضرائب متنوعة على الفلاحين بالمناطق الخاضعة لهم ونهب محاصيلهم وقطعانهم، والسيطرة على أراضيهم وابتزازهم وتحويلهم إلى أرقاء¹¹. وازدادت حدة هذه الظروف تدهورا بفعل تحويل البرتغاليين التجارة إلى الموانئ المطلة على الأطلسي وتهميش التجارة الداخلية وإبعاد أي دور للأطراف المغربية¹²، بل وأضحوا يقاوضون الذهب السوداني بالبضائع المستولى عليها من مناطق مغربية مثل سوس ودكالة، بحيث أصبحوا يزاحمون المغرب في تجارة السودان إلى درجة أوشكت معها تجارة القوافل على التوقف¹³.

ومما زاد الطين بلة أعمال نهب المحاصيل وقطعان الماشية والدواب التي كان يمارسها أتباع البرتغاليين من المغاربة لصالحهم ولصالح أسيادهم، وفي مقدمتهم أعراب الغرب بقيادة يحيى

⁷ - MERCIER, E. (1868). *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830)*, Paris : Ernest LEROUX Éditeur, Tome III: p.9.

⁸ - مزين، محمد. (1986). فاس وبإديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549-1637م، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2: ص 405.

⁹ - الناجي، محمد. (2004). التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب ق 16-19 م، ترجمة عبد الرحيم حزل، الرباط: جذور للنشر، ص 49.

¹⁰ - بوشرب، أحمد. (1984). دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481م-أكتوبر 1541م)، الدار البيضاء: الشركة الجديدة دار الثقافة، ص 437.

¹¹ - الناجي، 2004، ص 60 – 61.

¹² - نفسه، ص 63.

¹³ - حجي، محمد. (1977). الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، سلسلة التاريخ 2، الرباط: منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة، 1: ص 49.

أوتعفوفت(ت1518م)¹⁴، والذين كانوا يقومون أيضا بجباية الضرائب لفائدة البرتغال¹⁵، إلى جانب أسر الأهالي المغاربة وتحويلهم إلى رقيق لدى الجانب البرتغالي، مما أدى إلى إفراغ المناطق السهلية الساحلية النشيطة فلاحيا (مثل دكالة والشاوية والشيظامة وحاحا...) من ساكنتها، والتي اتجهت نحو المناطق الداخلية، إذ أسهم الخصاص المهول في اليد العاملة وانعدام الأمن في خنق الفلاحين، وبالتالي تراجع الإنتاج، الشيء الذي كان له عواقب كارثية على الاقتصاد المغربي¹⁶.

إذ أدت قلة الموارد الفلاحية وكذا تراجع الإنتاج وركود الحركة التجارية إلى حدوث نزيف ديمغرافي كبير تمثل في تراجع ساكنة المغرب خلال الفترة بنسبة تجاوزت الثلث¹⁷، وخاصة في السهول الأطلسية نتيجة الآثار الناجمة عن الحروب مع البرتغاليين، زيادة على الأوبئة والمجاعات مثل مجاعة 1521-1522م التي أعقبها فراغ سكاني خطير¹⁸، هذا التراجع الديمغرافي الذي أثر على تراجع أعداد المستخدمين والأجراء وغيرهم من الفئات المنتجة. كما أصبح الفلاحون في وضعية صعبة، إلى جانب تدهور الحياة الاجتماعية بالأوساط الحضرية¹⁹.

وقد استغل البرتغاليون المجاعات المتوالية التي ضربت البلاد خلال فترة احتلالهم للشغور المغربية، والتي كان لهذا الاحتلال الدور الأساسي فيها، وخصوصا المجاعات، من أجل استعباد المغاربة وتوجيههم للعمل في البرتغال أو إسبانيا، إلى درجة دفعت معها حدة المجاعة الرجل أو المرأة لبيع الأبناء²⁰ أو أن يبيعا نفسيهما مقابل الخبز²¹ أو طبق من التين أو الزبيب²²، حتى لم يعد يساوي المغاربة في نظر البرتغاليين شيئا بكثرة ما كانوا يعرضون أنفسهم أو يعرض بعضهم بعضا للبيع من أجل البقاء على قيد الحياة²³، بل وكان منهم من يفضل اعتناق المسيحية على أن يموت جوعا²⁴. إلى جانب الأسرى الذين يقعون في أيدي البرتغاليين جراء الغارات التي يقومون بشنها إلى جانب عملائهم

¹⁴ - كريخال، مارمول. (1984). إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر، الرباط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1: ص 11.

¹⁵ - التازي، 1988، ص 246.

¹⁶ - الناجي، 2004، ص 61-62.

¹⁷ - نفسه، ص 61.

¹⁸ - روزنبرجي، برنار. التريكي، حميد. (2010). المجاعات والأوبئة في المغرب القرنين 16 و17م، ترجمة عبد الرحيم حزل، ط 2، الرباط: منشورات دار الأمان، ص 233.

¹⁹ - الناجي، 2004، ص 61 - 62.

²⁰ - RIVET D. (2012). *Histoire du Maroc*, Paris: Editions Fayard, p.197-198.

²¹ - كريخال، مارمول. (1984). إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر، الرباط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 2: ص 100.

²² - استيتو، محمد. (1999). "أقوات وتغذية في تاريخ المغرب الحديث"، مجلة أمل، السنة السادسة، العدد 17: ص 51.

²³ - رزوق، محمد. (1991). دراسات في تاريخ المغرب، ط 2، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، ص 12-13.

²⁴ - RIVET D., 2012, p. 215.

من الأعراب²⁵. وكان في بعض الأحيان يتم أسر حتى المغاربة المتعاملين معهم، بحيث أضحت تجارة الرقيق المغربي تحقق أرباحاً طائلة للبرتغاليين، وأصبحت أعداد مهمة من السفن تشتغل في نقل الشباب والفتيات الجميلات نحو لشبونة وإشبيلية²⁶. إذ عاش الأسرى المغاربة -ولاسيما بالبرتغال- ظروفاً قاسية، نتيجة المعاملة غير الإنسانية والأعمال الشاقة التي كانت تفرض عليهم²⁷. واستغلوا كذلك في الأعمال الشاقة وداخل المنازل²⁸، وتعرضوا للاستغلال الجنسي، وأكروها على اعتناق المسيحية²⁹. وتم منعهم من إظهار ثقافتهم داخل المجتمع الإسباني أو البرتغالي³⁰. فعلى سبيل المثال، يعتبر جزء كبير من سكان جزر الخالدات الواقعة قبالة السواحل الأطلنتية المغربية من أصل مغربي بفعل جلب الإسبان الكثير من الأسرى المغاربة -حتى من الأغنياء- إليها، وأجبروهم على التنصر، حيث عددهم مهندس إسباني سنة 1595م بحوالي 1500 أسير مغربي، هؤلاء الأسرى الذين كانوا يقدمون يد المساعدة للقراصنة المغربية الذين يهاجمون سواحل هذه الجزر ابتداء من سنة 1565م إلى غاية 1595م³¹.

تركت هذه المحن أثرها على ذهنيات وعقليات المغاربة، حيث دفعت هذه الحروب، وما ترتب عنها من خوف وجهل وضعف عام في مستوى التعليم وغلبة طابع البداوة³²، عامة المغاربة إلى الارتباط بالغيبيات واللجوء إلى السحرة والمشعوذين الذين تكاثروا بشكل غير مسبوق في إطار هذه الظرفية، وجعلوا سيرورة أمورهم اليومية والمعيشية متعلقة بالتمايم وعقد السحر³³، وذلك بنية العلاج وقضاء الحاجات أو تلافي المخاطر والأهوال، إلى حد رهن حياتهم بها في الحروب في ظل العجز عن مواجهة المحتل الإيبيري³⁴.

²⁵ - بوشرب، أحمد. (1996). مغاربة في البرتغال خلال القرن 16م، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 36، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم والإنسانية، ص 27-28.

²⁶ - نفسه، ص 31-32.

²⁷ - نفسه، ص 103-105.

²⁸ - RIVET D., 2012, p.197-198.

²⁹ - رزوق، 1991، ص 12-13-14.

³⁰ - بوشرب، 1996، ص 130-133.

³¹ - حركات، إبراهيم. (1978). المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء: نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، 2: ص 419.

³² - القدوري، عبد المجيد (محرر). (2001). "عودة إلى ظاهرة الزوايا في مغرب العصر الحديث"، وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة إلى الأستاذ إبراهيم بوطالب، سلسلة دراسات وبحوث رقم 27، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص 406.

³³ - الإفرائي، محمد الصغير. (2004). صفة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي. ص 101.

³⁴ - الناصري، أحمد. (2001). الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق أحمد الناصري، الرباط: منشورات وزارة الثقافة والاتصال، 5: ص 51-52.

وظهر في هذا الإطار مجموعة من متقمصي الولاية والكرامة من المرابطين والمتصوفة وغيرهم ممن أصبح لهم نفوذ هائل على الأهالي، وذلك بحكم ادعائهم القدرة على حل مشاكلهم وإخراجهم من الأزمات والإكراهات التي يعيشونها، من أجل تحقيق مكاسب مادية وتجاوز بؤسهم على حساب بؤس ومشاعر عامة الناس، حتى اعتبر هذا الأمر من الأمور الخطيرة التي ظهرت بالمغرب خلال هذه الفترة³⁵.

فقد كان هؤلاء الأدعياء أنفسهم من الفئات الهشة التي أحالتها ظروف الغزو الأجنبي على الفقر، ومن ثم التفكير في سبل جديدة للعيش عن طريق النصب والاحتيال، وهم من أسماهم "مارمول" بالبؤساء الذين يتظاهرون بالزهد لخداع الناس³⁶، حيث تزايد بقوة نفوذ الصوفية والصلحاء في الأوساط الشعبية بداعي امتلاك الكرامات والخوارق والقدرة على التنبؤ بالغيب³⁷، حتى أصبح كل المغاربة منقسمين إلى طوائف صوفية تتبع لشيخ من المشايخ يلجؤون إليه ويتبعون له أو لزاويته، سواء كان من الأحياء أو الأموات³⁸، لأن الاعتقاد في الكرامات في أزمنة الأزمة الاقتصادية والسياسية دائما ما كان يشكل تعويضا نفسيا للفقراء لتجاوز محنتهم³⁹.

فيما اعتقد آخرون أن هذه الحالة التي وصلت إليها البلاد إنما هي عقاب إلهي بسبب الابتعاد عن طريق الإسلام، والذي لابد من العودة إليه حتى يستطيع المغاربة النصر على المسيحيين وتحسن أحوالهم، في ظل ترويج بعض رجال الصلاح والعلم لذلك⁴⁰.

ثانيا- التحولات السياسية الناجمة عن الغزو الإيبيري للمغرب:

أسهم الغزو الإيبيري بدور فاعل في التحولات الكبرى التي عرفها المشهد السياسي المغربي خلال هذه الفترة، وذلك بتسريع وثيرة الانتقال من الحكم الميريني إلى الوطاسيين ثم إلى الدولة السعدية، فقد سيطر محمد بن أبي زكرياء الوطاسي سنة 1472م على الحكم وانتزعه من يد المرينيين جراء عدم قدرتهم على الدفاع عن البلاد في وجه هجمات البرتغاليين خصوصا بعد احتلال هؤلاء لمدينتي طنجة وأصيلا سنة 1471م، وتدمير الرعية من هذا التقاعس⁴¹. وتكرر الأمر مرة أخرى مع ضعف الدولة الوطاسية أمام الغزو الإيبيري، حيث ظهرت مجموعة من الكيانات السياسية التي ستحاول

³⁵- البوزيدي، أحمد. (1994). التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع القرن 17 / مطلع القرن 20م): دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، الدار البيضاء: آفاق متوسطة، ص 79.

³⁶- نفسه، ص 143.

³⁷- حركات، إبراهيم. (1987). السياسة والمجتمع في العصر السعدي، الدار البيضاء: نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، ص 333.

³⁸- القدوري، 2001، ص 405.

³⁹- ابن القاضي، أحمد. (1986). المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، دراسة وتحقيق محمد مرزوق، الرباط: مكتبة

المعارف، 1: ص 122.

⁴⁰- البوزيدي، 1994، ص 78.

⁴¹- كريم، 1977، ص 29.

ملء الفراغ الحاصل في ساحة الجهاد والاضطلاع بمكانة سياسية بفضل ذلك، استغلالاً للوضع الشعبي العام المترقب لبروز الإمام العادل القادر على توحيد البلاد وقيادة الجهاد ضد الغزاة⁴².
فإلى جانب الأزمة الاجتماعية والاقتصادية التي تسبب فيها التدخل الإيبيري، وخصوصاً البرتغالي، فقد كانت له اليد الطولى في انتشار الفوضى وغياب الأمن على مستوى معظم مناطق البلاد وخصوصاً السهول الساحلية والجهات القريبة منها، حيث وفر هذا الاحتلال الأجواء الخصبة لانتشار عمليات اللصوصية وقطع الطرق وما واكبها من غياب سلطة مركزية قوية ووضع اجتماعي واقتصادي مترد، حيث لجأت مجموعة من القبائل خاصة العربية والجبلية منها، والبعيدة عن المركز إلى العيش على السطو والسرقة⁴³، لتندفع بذلك عدد من القبائل المغربية الأخرى فراراً من وضعية الفوضى وانعدام الأمن وضغط جباية الدولة الوطاسية إلى الخضوع للبرتغاليين والأعيان الموالين لهم في ظل غياب حلول أخرى⁴⁴. أو تشكيل ألوية عسكرية تحت إشراف المحتل البرتغالي بحثاً عن الأمان ولقتال قطاع الطرق⁴⁵. أو حفاظاً على مصالحها التجارية معه⁴⁶. لكن قبائل غيرها فضلت الفرار إلى الجبال هرباً من سداد الضرائب التي يفرضها كل من الوطاسيين والبرتغاليين، أو خوفاً من الوقوع تحت طائلة الأسر والاستعباد على يد الاحتلال البرتغالي وأعوانه بسبب عدم القدرة على السداد⁴⁷.

ووسط هذه الحالة من الفراغ الأمني واليأس والفوضى السياسية وضعف الدولة المغربية حينها، سيضمن شيوع روح التصوف وتكاثر الزوايا والمشايخ مع مطلع القرن 10هـ/16م⁴⁸ بروز عدد من الزعماء المحليين، الذين سيصبحون منافسين أقوياء على السلطة التي كانت بيد الملوك الوطاسيين الضعفاء مع اشتداد نفوذهم بين الأوساط الشعبية، وذلك من خلال محاولتهم سد ثغرة ضعف الدولة الوطاسية في الدعوة للجهاد⁴⁹، وبالتالي تمتعت الزوايا الصوفية بدور سياسي طلائعي

⁴²- أكنوش، عبد اللطيف. (1980). تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية في المغرب، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، ص 97.

⁴³- الوزان، الحسن. (1983). وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1: ص 104.

105، 107/ كبرخال، إفريقيا، 1984، 2: ص 184.

⁴⁴- بوشرب، 1984، ص 138-139.

⁴⁵- القدوري، عبد المجيد. (2012). المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، بيروت: المركز الثقافي العربي، ص 103.

⁴⁶- كريم، 1977، ص 15.

⁴⁷- الوزان، 1983، ص 155-156.

⁴⁸- العافية، عبد القادر. (1982). الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوالها خلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 197، 192.

⁴⁹- البوزيدي، 1994، ص 78.

بعدما كانت مجرد مراكز اجتماعية أو مؤسسات للعبادة والتعليم⁵⁰، خصوصا مع تضخم مواردها نتيجة كثرة الهبات والأوقاف⁵¹.

فبسبب معاناة الأهالي على كافة الأصعدة من الهجمة الإيبيرية وما ترافق معها من قتل واستغلال واستعباد، اندفع المغاربة بقوة للبحث عن يحمل راية الجهاد ويوقف هذه التجاوزات، لاسيما من الطرف البرتغالي⁵². حيث اعتبر بعض كتاب المصادر مثل المؤرخ المجهول⁵³ ودييغو دي طوريس⁵⁴، وكذلك مارمول كريخال⁵⁵، أن السعديين استغلوا الجهاد كذريعة للوصول إلى السلطة. إذ ستظهر في ظل هذه الأجواء دعوة الإمارة السعدية التي ستترفع راية مقاومة الغزو الأجنبي ووكلائه المحليين، مما أتاح لها الحصول على مبايعة ودعم المغاربة، حيث رأت حملة الدعوة السعدية في هذه الظروف الفرصة المواتية للخروج من عباءة الشرف والتصوف وإبراز دور سياسي، حيث ادعت القدرة على حمل راية الجهاد وتخليص البلاد من ربة الاحتلال الأجنبي رغم وجود الدولة الوطاسية التي فقدت المغاربة الأمل فيها للاضطلاع بهذه المهمة. فبمباركة من شيوخ الزاوية الجزولية سوف يجد محمد القائم (1510-1517م) الدعم الشعبي الكافي لبيعته التي تمت على أساس الجهاد ضد هذا الاحتلال⁵⁶، الشيء الذي سيلقى دعاية ورواجا شعبيا كبيرا بعد إشهارهم للجهاد⁵⁷. حيث حصلوا على دعم الأهالي الذين انضموا إلى صفوفهم بشكل منقطع النظير رغبة في الخلاص من هذا الظلم الواقع عليهم من البرتغاليين على وجه الخصوص⁵⁸. فبالإضافة إلى النسب الشريف، قدم مؤسس الدعوة السعدية نفسه لتزعم الجهاد ضد البرتغاليين ولطرح نفسه للحكم كبديل للوطاسيين العاجزين على الدفاع عن الرعية والذود عن البلاد ضد الغزو الأجنبي وإيجاد حل للأزمات

⁵⁰ -DE LA VERONNE Ch. (1979). *Histoire sommaire des Sa'Diens au Maroc: la première dynastie Chérifienne 1511-1659*, Paris: Librairie Orientale Paul Geuthner, p. 13.

⁵¹ الفاسي، محمد العربي. (2008). مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تحقيق محمد حمزة الكتاني، بيروت: دار ابن حزم، ص 112.

⁵² حجي، 1977، ص 199.

⁵³ مجهول، مؤرخ. (1994). تاريخ الدولة السعدية التكميدارية، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، مراكش: دار تينمل للطباعة والنشر، ص 13.

⁵⁴ دي طوريس، دييغو. (1988). تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الدار البيضاء: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ص 15-16.

⁵⁵ كريخال، إفريقيا، 1984، 1: ص 451-452.

⁵⁶ ابن عسكر، محمد. (1977). دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرآن القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، سلسلة التراجم 1، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ص 114.

⁵⁷ دي طوريس، 1988، ص 30.

⁵⁸ كريخال، إفريقيا، 1984، 1: ص 453-454.

التي تعيشها، حيث أطلق نبوءات تبشر الأهالي بسيطرة أبنائه على الملك، وبالتالي إصلاح الأحوال⁵⁹. كما شكلت مسألة إرساء الأمن وإخضاع قطاع الطرق للعدالة إحدى الوسائل السعدية لاكتساب الشعبية بين صفوف المغاربة⁶⁰.

فقد استطاع السعديون تحرير موقع "تافتنا" قرب أكادير من يد البرتغاليين، وتمكنوا من القضاء على حليفهم زعيم عرب "عبدة" والغرب يحيى أوتغوفت سنة 1518م⁶¹، وتحرير "رأس أكبر" سنة 947هـ/1540م⁶². وإكراه البرتغاليين على إخلاء آسفي وأزمور سنة 1541م عقب ذلك⁶³. حيث عاد الفلاحون المغاربة إلى نشاطهم المعتاد، لتحسن معه أوضاعهم المعيشية وأحوال البلاد⁶⁴. ومع ذلك، فإن التحرش الإيبيري بالمغرب لن يتوقف خلال هذه الفترة -على الأقل- إلا مع معركة وادي المخازن سنة 1578م، والتي تجند لها الأهالي المغاربة من كل أنحاء البلاد، إثر تدخل الملك البرتغالي سبستيان الأول (1557-1578م) الذي استنجد به الأمير السعدي محمد المتوكل (1574-1576م) ضد عمه عبد الملك المعتصم (1576-1578م) المدعوم من الأتراك، هذه المعركة التي سوف تفتح المجال أمام وضع سياسي جديد مع وفاة السلطانين المتصارعين معا، إضافة إلى مقتل ملك الامبراطورية البرتغالية ونهايتها، بعدما تلقت في هذه المعركة على الأرض المغربية قرب مدينة القصر الكبير هزيمة قاسية تمثلت -إلى جانب مقتل الامبراطور البرتغالي- أسر جل الأمراء والنبلاء والجنود الذين بلغ عددهم حوالي 20000 أسير، حسب المصادر الأجنبية نفسها⁶⁵، هذه المعركة التي عززت ووحدت الدولة المغربية ومكنتها من استعادة هيبتها⁶⁶.

خاتمة:

على الرغم من المآسي التي تسبب فيها الغزو الإيبيري للمغرب والمغاربة على كافة المستويات، فإن المشروع السعدي تمكن من إعادة توحيد البلاد وإحياء اقتصادها وإقرار الأمن بربوعها وإيقاف الهجمات الإيبيرية إلى حد كبير، لاسيما بعد اندحار البرتغاليين في معركة وادي المخازن 1578م التي منحت هيبة

⁵⁹- البوزيدي، 1994، ص 80.

⁶⁰- دي طوريس، 1988، ص 62.

⁶¹- ROSENBERGER B. (1993). «Yahya U Tafut (1506-1518) des ambitions déçues», Hespéris-Tamuda, Vol. XXXI, Fasc. I: p. 31.

⁶²- بوشنتوف، لطفي. (2004). العالم والسلطان: دراسة في انتقال الحكم ومقومات المشروع-العهد السعدي الأول، سلسلة أطروحات ورسائل، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، ص 320.

⁶³- أگنوش، 1980، ص 99.

⁶⁴- كريحال، إفريقيا، 1984، 2: ص 16.

⁶⁵- DE LA VERONNE Ch. (1961). *Les Sources Inédites de l'histoire du Maroc, 1^{ère} série - Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèques d'Espagne*, Paris: Paul Geuthner, Tome III: p. 476.

⁶⁶- الأرقش، دلندة. ابن طاهر، جمال. الأرقش، عبد الحميد. (1995). مقدمات ووثائق في تاريخ المغرب العربي الحديث، ج 6، سلسلة تاريخ، منوبة (تونس): منشورات كلية الآداب، ص 21.

كبيرة للمغرب بين القوى الإقليمية. كما أن هذه الحرب الطاحنة ما بين المغاربة والإيبيريين لم تمنع من وجود صور إيجابية حفظها لنا التاريخ من التعايش والتلاقح والتبادل الثقافي والحضاري ما بين الجانبين. لعل أبرزها الاحتضان الذي لقيه عدد كبير من الأسرى البرتغاليين داخل المجتمع المغربي ولاسيما داخل البلاط السلطاني السعدي، إلى غاية بلوغ بعضهم مكانة الحظوة. فقد كان الأسرى البرتغاليون -رغم أن معظمهم أسروا في مواجهات وحروب- يعاملون أفضل من غيرهم من لدن الأمراء السعديين⁶⁷، ويعطفون عليهم⁶⁸. ولاسيما خلال عهد أحمد المنصور الذي خص البرتغاليين من أسرى وادي المخازن بمعاملة تفضيلية وبعدة الامتيازات⁶⁹، إلى غاية بلوغهم درجة الثراء والفجور نتيجة الأموال الكثيرة التي امتلكوها⁷⁰، وتمتعوا كذلك بثقته في الإشراف على أموال القصر حتى صارت لهم حظوة كبيرة عنده⁷¹. وقد قوبل هؤلاء الأسرى كذلك بمعاملة جيدة من طرف العديد من رجالات الدولة السعدية، وعلى رأسهم القائد إبراهيم السفيناني الذي كان يوصف بـ «صديق النبلاء» البرتغاليين و«صديق النصاري»⁷². وكان بعض الأسياد البرتغاليين كذلك يتصدقون بالعق على من بحوزتهم من الأسرى المغاربة قبيل وفاتهم ويسمحون لهم بالعودة لبلادهم⁷³. إلى جانب بعض مشاهد التسامح الأخرى التي طبعت الأجواء ما بين الجانبين بعد هذه المواجهات، ومنها نموذج العفو على القائد السعدي عبد الكريم بن تودة الذي كان ضمن حاشية السلطان محمد المتوكل وسلم -بأمر منه- مدينة أصيلا للملك البرتغالي خلال غزوه للمغرب قبيل معركة وادي المخازن، حيث اضطر للجوء إلى لشبونة البرتغالية بعد مقتل الملكين عقب هذه المعركة، لكن رغم خيانتة فقد حظي بعفو السلطان أحمد المنصور الذهبي الذي نال عنده أيضا منصبا رفيعا ضمن القيادة الكبار لدولته⁷⁴.

لائحة المصادر والمراجع:

- ابن عسكر، محمد. (1977). دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرآن القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، سلسلة التراجم 1، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.

⁶⁷ كريخال، إفريقيا، 1984، 2: ص 157 / *Le Maroc à la fin de XVI^e siècle d'après la Jornada de* Ricard R. (1957). *Mendoça*, Hespérès, Tome XLIV, 3^e et 4^e Trimestres: p. 190.

⁶⁸ كريخال، إفريقيا، ج 1، 1984، ص 464.

⁶⁹ دي صالديانيا، أنطونيو. (2011). أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب، تقديم وترجمة وتحقيق إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف، الرباط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ص 40.

⁷⁰ نفسه، ص 90.

⁷¹ نفسه، ص 91-92.

⁷² نفسه، ص 40، 95.

⁷³ رزوق، 1991، ص 14.

⁷⁴ دي صالديانيا، 2011، ص 100.

- - ابن القاضي، أحمد. (1986). المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، دراسة وتحقيق محمد مرزوق، الرباط: مكتبة المعارف، 1.
- - الأرقش، دلندة. ابن طاهر، جمال. الأرقش، عبد الحميد. (1995). مقدمات ووثائق في تاريخ المغرب العربي الحديث، ج 6، سلسلة تاريخ، منوبة (تونس): منشورات كلية الآداب.
- - استيتو، محمد. (1999). "أقوات وتغذية في تاريخ المغرب الحديث"، مجلة أمل، السنة السادسة، العدد 17.
- - الإفرائي، محمد الصغير. (2004). صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي.
- - أكنوش، عبد اللطيف. (1980). تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية في المغرب، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق.
- - البوزيدي، أحمد. (1994). التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع القرن 17 / مطلع القرن 20م): دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، الدار البيضاء: آفاق متوسطة.
- - بوشرب، أحمد. (1984). دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481م-أكتوبر 1541م)، الدار البيضاء: الشركة الجديدة دار الثقافة.
- - بوشرب، أحمد. (1996). مغاربة في البرتغال خلال القرن 16م، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 36، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم والإنسانية.
- - بوشنتوف، لطفي. (2004). العالم والسلطان: دراسة في انتقال الحكم ومقومات المشروعية-العهد السعدي الأول، سلسلة أطروحات ورسائل، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق.
- - التازي، عبد الهادي. التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المحمدية: مطابع فضالة، 7.
- - حجي، محمد. (1977). الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، سلسلة التاريخ 2، الرباط: منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة، 1.
- - حركات، إبراهيم. (1987). السياسة والمجتمع في العصر السعدي، الدار البيضاء: نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة.
- - حركات، إبراهيم. (1978). المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء: نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، 2.

- - دي صالدانيا، أنطونيو. (2011). أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب، تقديم وترجمة وتحقيق إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف، الرباط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر.
- - دي طوريس، ديبغو. (1988). تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الدار البيضاء: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر.
- - رزوق، محمد. (1991). دراسات في تاريخ المغرب، ط 2، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق.
- - روزنبرج، برنار. التريكي، حميد. (2010). المجاعات والأوبئة في المغرب القرنين 16 و17م، ترجمة عبد الرحيم حزل، ط 2، الرباط: منشورات دار الأمان.
- - العافية، عبد القادر. (1982). الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازاها خلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- - الفاسي، محمد العربي. (2008). مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تحقيق محمد حمزة الكتاني، بيروت: دار ابن حزم.
- - القدوري، عبد المجيد (محرر). (2001). "عودة إلى ظاهرة الزوايا في مغرب العصر الحديث"، وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة إلى الأستاذ إبراهيم بوطالب، سلسلة دراسات وبحوث رقم 27، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- - القدوري، عبد المجيد. (2012). المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- - كربخال، مارمول. (1984). إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر، الرباط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1-2.
- - كريم، عبد الكريم. (1977). المغرب في عهد الدولة السعدية، الدار البيضاء: شركة الطبع والنشر.
- - مجهول، مؤرخ. (1994). تاريخ الدولة السعدية التكمدارية، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، مراكش: دار تينمل للطباعة والنشر.
- - مزين، محمد. (1986). فاس وباديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549-1637م، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2.
- - المنصوري، عثمان. (1989). "تأثير الحروب والكوارث على النشاط التجاري بمغرب القرن السادس عشر"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالدولة والمجتمع عبر تاريخ المغرب، عمر آفا (محرر)، الدار البيضاء: كلية الآداب والعلوم الإنسانية-عين الشق، 2.

- - الناجي، محمد. (2004). التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب ق 16-19 م، ترجمة عبد الرحيم حزل، الرباط: جذور للنشر.
- - الناصري، أحمد. (2001). الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق أحمد الناصري، الرباط: منشورات وزارة الثقافة والاتصال، 5.
- - الوزان، الحسن. (1983). وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1.
- - DE LA VERONNE Ch. (1979). *Histoire sommaire des Sa'Diens au Maroc : la première dynastie Chérifienne 1511-1659*, Paris : Librairie orientale Paul Geuthner.
- - DE LA VERONNE Ch. (1961). *Les Sources Inédites de l'histoire du Maroc, 1^{ère} série - Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèques d'Espagne*, Paris : Paul Geuthner, Tome III.
- - MERCIER, E. (1868). *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830*, Paris : Ernest LEROUX Éditeur, Tome III.
- - RICARD R. (1957). «Le Maroc à La fin de XVI^e siècle d'après la Jornada de Mendoza», Hespéris, Tome XLIV, 3^e et 4^e Trimestres.
- - RIVET D. (2012). *Histoire du Maroc*, Paris : Editions Fayard.
- - ROSENBERGER B. (1993). «Yahya U Tafuft (1506-1518) des ambitions déçues», Hespéris-Tamuda, Vol. XXXI, Fasc. I.